

التطور التاريخي للحدائق - الجزء (3)

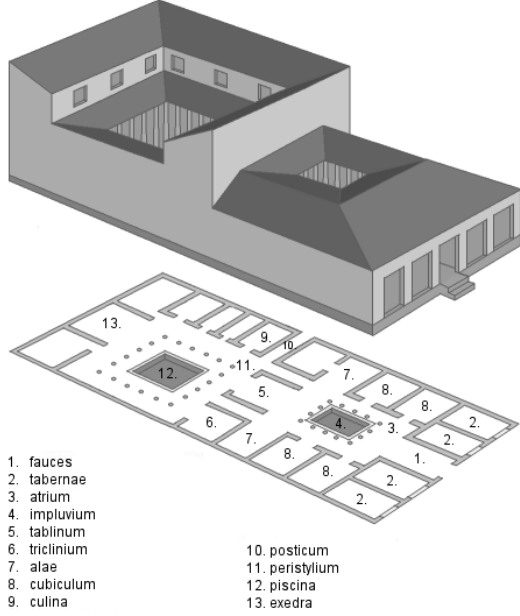
HISTORY OF GARDENS

6. الحدائق في الحضارة الرومانية

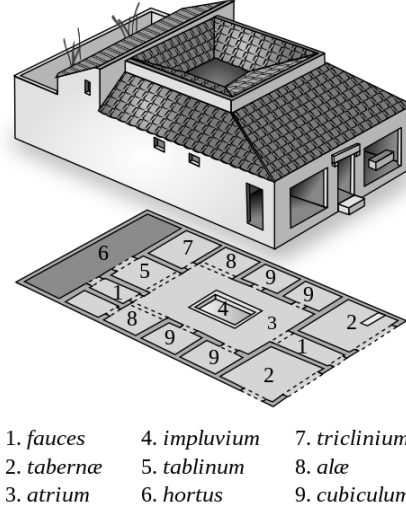
الارتباط بين الحضارتين الإغريقية والرومانية في مجال العمارة معروف ولا بد أن التأثير الإغريقي شمل أيضا تصميم الحدائق والمساحات الخضراء ضمن المدن الرومانية وخارجها مع وجود تطوير لها واستخدام لعناصر جديدة. مصادر المعلومات المتوفرة حول الحدائق الرومانية متنوعة فمنها المصادر الأدبية التي تصف الحدائق ومنها الرسومات التي تصور الحدائق ضمن اللوحات الجدارية أو موزاييك الأرضيات، كما تم التنقيب عن عدد من الحدائق التي تعود إلى الفترة الرومانية وخاصة في مدينة بومبي Pompeii. جميع الدلائل تشير إلى أن الانتظام والتناظر كان الأسلوب المتبع في تنسيق جميع هذه الحدائق، كما تدل على أنه يمكن التمييز بين حدائق البيوت والقصور والفيلات إضافة إلى حدائق المدن.

أ- حدائق البيوت الرومانية

بيوت الرومان الأغنياء كانت أكبر من البيوت الإغريقية مساحة إذ تتوزع فراغاتها حول فناء داخلي أو أكثر، حيث يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الأفنية في البيوت الرومانية. الأول يدعى أتريوم atrium يقع في مركز المبنى ليؤمن الوصول إلى فراغات البيت والربط مع الشارع وهو محاط برواق محمول على أربعة أعمدة وظيفته تأمين الإضاءة والتهوية، سقف الرواق يميل نحو الداخل لتجميع مياه الأمطار ضمن بركة خاصة تدعى إمبلوفيوم impluvium. النمط الثاني من الأفنية محاط بأروقة peristyle تشكلها صفوف من الأعمدة وهي تؤدي إلى فراغات المعيشة والنوم المحيطة، وتضم الباحة المكشوفة برك مياه ونوافير وأشجيرات وأزهارا وتمائلا وأحيانا هيكلًا صغيرا أي أن هذا الفناء الذي كان يستخدم من قبل الأسرة للمعيشة والتسلية والاسترخاء كان بمثابة حديقة داخلية. أما الفناء الثالث فغالبا ما يقع في الجهة الخلفية وهو عبارة عن مساحة مسورة ملحقة بالمبنى ومخصصة للزراعة، يدعى xystus أو hortus، تنبت فيها الخضراوات والأزهار ويمكن أن تحوي مقصورة pavilion وعناصر مائية وتمائيل. ساعد على وجود مثل هذه المساحات تغذية المدن الرومانية بالمياه بواسطة قنوات ضخمة ابتداء من عهد الامبراطور أغسطس. البيت الروماني يمكن أن يشمل اثنين أو ثلاثة من نماذج الأفنية المذكورة، كما تدل بقايا البيوت التي عثر عليها في مدن بومبي Pompeii وهرركولانيوم Herculaneum.



بيت روماني من نموذج الـ Peristyle

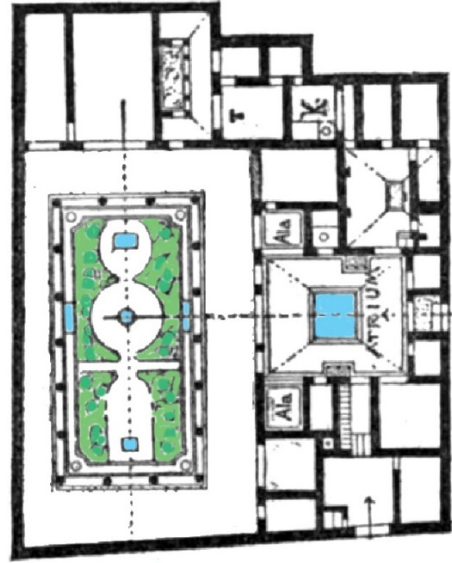


بيت روماني من نموذج الـ Atrium

الأفنية الداخلية كانت تؤمن حماية من الشمس والرياح والغبار ومن ضجيج الشارع، وبما أن الأروقة المحيطة تؤمن الظلال اللازمة لم تكن هناك حاجة إلى زراعة أشجار كبيرة حيث تم تشكيل الحديقة باستخدام أشجار صغيرة مزروعة ضمن أصص ونباتات وشجيرات ضمن أحواض كان يتم توزيعها بشكل هندسي. وكان الرومان يفضلون النباتات دائمة الخضرة مثل الغار والريحان والدفلى وإكليل الجبل والبقس إضافة إلى الورد والنجس والليليوم والبنفسج والأقحوان وشقائق النعمان، بحيث تحيط أسيجة نباتية منخفضة بمساحات من المروج والأزهار. واشتملت الأفنية على برك مياه مع نوافير سمح بتطويرها استخدام أنابيب من الرصاص بدلا من أنابيب الفخار في الحضارات السابقة، وكانت تحيط بها طاوولات ومقاعد رخامية للجلوس وتمائيل صغيرة من الرخام أو البرونز أو الفخار كعناصر تزيينية (تقلد التمائيل الإغريقية أو مستوردة خصيصا من اليونان).

ويعد البيت المعروف بـ House of the Vettier أو Casa dei Vitti الذي كان ملكا لأسرة فيتتيوس الذين كانوا من التجار الميسورين في مدينة بومبي من أشهر البيوت الرومانية من نموذج الـ peristyle. كشف التنقيب عن هذا المبنى الذي طمر برماذ بركان فيزوف عام 79 م. المبنى يضم أTRIUM مرتبط بالمدخل يتعامد معه فناء محاط بالأروقة يشكل الحديقة الداخلية لأهل البيت. تنسيق الفناء المستطيل متناظر ومرتبطة محوريا مع فراغات البيت، يقسمه ممشى مفروش بالحصى الصغيرة إلى جزأين متماثلين يضم في كل من نهايته بركة مستطيلة مرتفعة عن الأرض مع نوافير ومثلها على المحور المتعامد

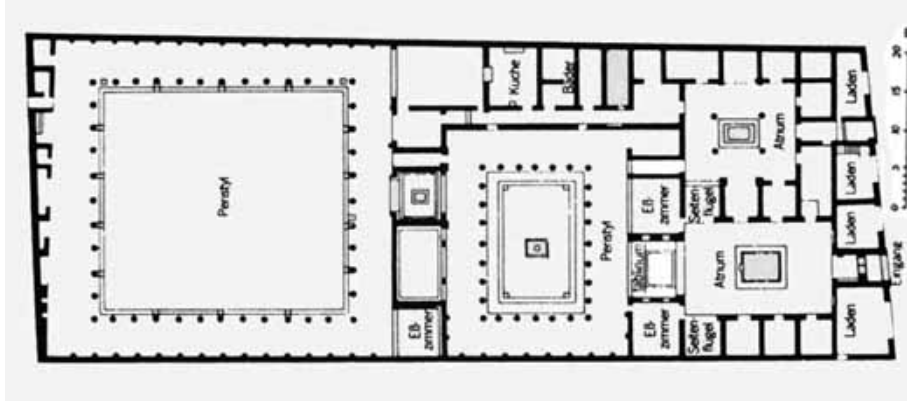
مع الأتريوم مع نافورة رخامية دائرية عند التقاء المحورين. تحيط بها أحواض ذات أشكال منحنية مزروعة بالأزهار ضمن مساحة من المرج كل منها ذات سياج نباتي منخفض من نباتات مختلفة وتوزع في الزوايا تماثيل رخامية صغيرة (تمت إعادة بناء البيت والحديقة في بوبولي). كما يشتهر البيت باللوحات الجدارية التي تزين جدران الغرف المختلفة.



بيت أسرة فيتيموس في بومبي House of the Vettii: المسقط - إعادة بناء للفناء المحاط بالأروقة

تميزت أفنية البيوت الرومانية باللوحات الجدارية المرسومة على جدران الأروقة (أسوة بالرسومات الجدارية التي كانت تغطي كل جدران الغرف)، والتي كان يتم اختيار موضوعاتها وألوانها بحيث تشكل امتدادا واتساعا بصريا للحديقة، فهي تمثل فتيات راقصة وأطفالا أثناء اللعب واستقبال الضيوف إضافة إلى نوافير وعرائش وأزهار ونباتات وكهوف وحيوانات برية وطيور. ومن الأمثلة الشهيرة عليها لوحات الحديقة من فيلا ليفيا قرب بريما بورتا في روما (القرن 1 م).

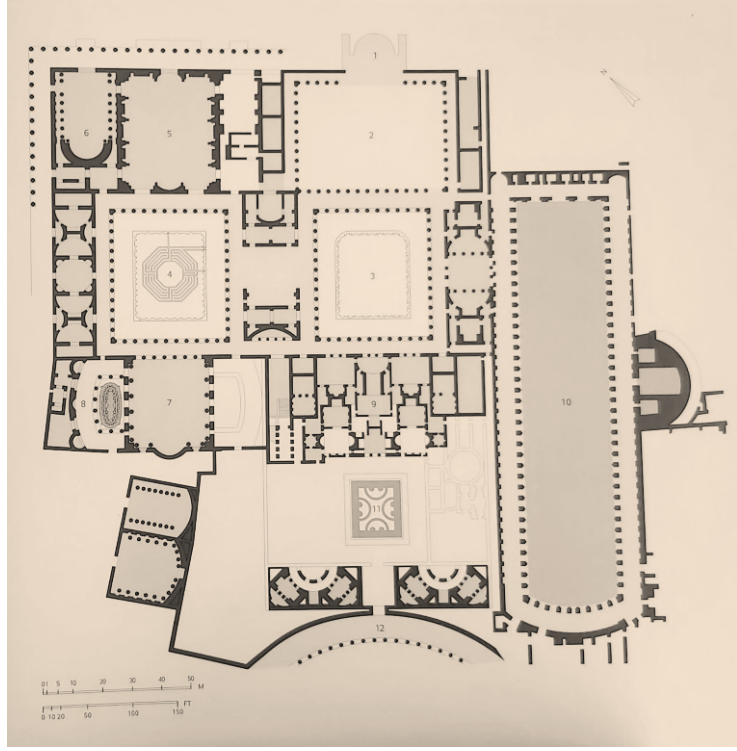
ويمكن أن تكون البيوت الرومانية من الاتساع بحيث تضم أكثر من أتريوم وأكثر من بيرستيل، كما هو الحال في البيت المعروف بـ House of the Faun في بومبي، حيث نرى تشكيلا مختلفا لكل من هذه الأفنية. فالبيرستيل الذي يقع في آخر البيت هو حديقة خلفية متسعة محاطة برواق مع جدران محيطة من ثلاث جهات. الباحة المكشوفة زرعت هنا بأشجار السرو والنخيل وغيرها من الأشجار المثمرة.



البيت المعروف بـ House of the Faun في بومبي: المسقط - فناء البيريستيل

ب- حدائق القصور الرومانية

لا تختلف قصور الأباطرة من حيث المبدأ عن بيوت أغنياء الرومان فهي مثلها ذات فراغات متنوعة تحيط بمجموعة من الأفنية ولكنها أكبر من حيث المساحة. وكان لها أهمية في تطور العمارة الرومانية والحدائق الملحقة بها وانتشارها. واللافت للنظر في هذه القصور العلاقة الوثيقة بين الفراغات المبنية والمكتشوفة ذات النوافير وأحواض الأزهار والاستخدام المشترك لها كفراغات استقبال أو معيشة خارجية والتداخل بينها عبر الأروقة وفراغات أخرى. أشهر قصور روما كان قصر القيصر نيرون Nero الذي يستدل من اسمه البيت الذهبي Domus Aurea على فخامته وكان للقصر حديقة مع مغاور وتمثيل وبحيرة كبيرة (بني مكانها الكولوسيوم). بعد حريق روما في زمن نيرون تضرر القصر الشهير وأقيمت فوقه مباني أخرى لاحقاً. وكان القيصر تيبيريوس Tiberius أول من بنى قصراً على تلة البالاتين Palatine إحدى التلال السبع في روما (نشأت تسمية palace نسبة إليها) ولكن بقايا هذا القصر تختفي اليوم تحت حدائق فارنيزي.

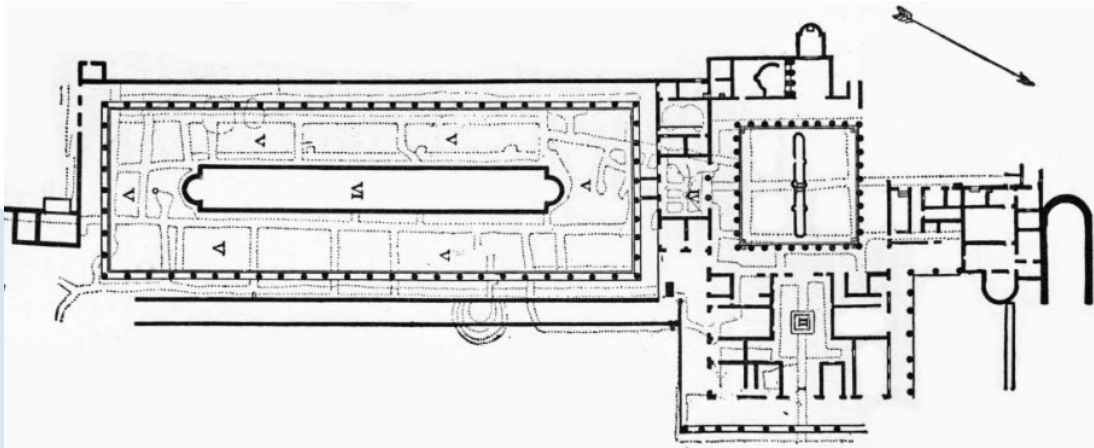


قصر الامبراطور دوميتيان Domitian في روما: المسقط - النيمفيوم - الملعب

هناك قصر آخر لا زالت آثاره مسيطرة على هذا التل إلى اليوم في روما. يعرف قصر الامبراطور دوميتيان Domitianus المبنى على تلة البالاتين بـ Domus Flavia نسبة إلى الأسرة التي ينتمي إليها. تم بناؤه ما بين 81-96 م من قبل المعمار رابيريوس Rabirius. يتكون القصر من أربعة أفنية من نموذج اليريستيل المحاطة بالأروقة من جميع الجهات وهي تضم مسطحات حدائقية، أحدها في الفناء الثالث عبارة عن لايرنت مئمن الشكل وعلى جوانبه قاعات عرش ضخمة وفراغ يضم nymphaeum نيمفيوم (معبد مائي) بيضوي الشكل مكون من عناصر مائية ونباتية. بينما تحيط فراغات السكن الخاصة بالقيصر المعروفة بـ Domus Augustana بالفناء الرابع، ويسيطر على الفناء تشكيل مائي عبارة عن قناة مائية مربعة الشكل تتفرع عنها أربعة قنوات نصف دائرية مع نوافير، كما يؤدي ممر إلى خارج القصر في مشكلا رواقا منحنيا يطل مباشرة على ميدان سباق العربات circus maximus. ويلحق بالقصر ملعب وميدان stadion-hippodrome واسع (160 x 50 م) محاط بالأروقة مع مقصورة نصف دائرية للقيصر في منتصف الضلع الطويل.

ج- حدائق الفيلات الرومانية

لما كان مصدر الغنى والازدهار الروماني أساسه المناطق الزراعية المحيطة بالمدن فقد أنشأ الكثير من أفراد طبقة النبلاء فيلات خارج روما والمدن الأخرى. كانت هذه الفيلات التي تعرف بـ villa urbana بيوت صيفية محاطة بالأراضي الزراعية وغالبا ما تقع بالقرب من مصدر للمياه للحصول على التبريد اللازم من خلال المسطحات المائية والنوافير. هذه الفيلات كانت عبارة عن مبان سكنية واسعة مكونة من عدة أفنية من نوع الأتریوم والبريستيل وهي تضم مجموعة من الحدائق المختلفة التي تتم مراعاة ارتباطها مع الطبيعة المحيطة. المباني والحدائق محمية بأسوار والأجزاء المكونة لها منتظمة ولكن كثيرا ما تكون موزعة بشكل متناثر وغير منتظم. قد يتقدم المبنى مدخل على شكل رواق مع وجود حدائق تراسية تضم أحواض أزهار عطرة ومقاعد تسمح بإطلالة مميزة على الطبيعة. كما شكلت الأروقة المحيطة بالأفنية والعرائش مكانا مظلا للتنزه. وكانت المياه تتدفق من المغاور والينابيع والنوافير إضافة إلى العديد من البرك ذات الأشكال المختلفة. الحدائق كانت تضم أقفاصا للطيور والحيوانات. وكان يتم تشذيب الأشجار والشجيرات مثل البقس والدلب والسرو لتعطي أشكالاً نحتية مميزة (لا زالت هذه الطريقة مألوفة إلى اليوم) وسيجا لأحواض النباتات لتشكل انسجاما مع التماثيل الأخرى الموزعة ضمن الحدائق.



Villa dei Papi في هيركولانيوم: المسقط - إعادة البناء في مركز Getty

تعتبر فيلا داي باييري **Villa dei Papiri** التي تم التنقيب عنها في هيركولانيوم من الأمثلة على هذا النوع من الفيلات ويمكن اليوم رؤية إعادة تصور للمبنى والحدائق تم بناؤها كاملة ضمن مؤسسة Getty في مالبينو (الولايات المتحدة).

أشهر الفيلات الرومانية خارج المدن فيلا الامبراطور هادريان **Villa Hadriana** التي أقيمت ما بين عامي 117-138 م بالقرب من تيفولي Tivoli شمال شرق روما والتي استخدمت كمقر للحكم لسنوات طويلة. العقار الشاسع (120 هكتار) أشبه بمدينة إذ يضم مجموعة كبيرة من المباني والحدائق، التي أضيف أحدها إلى الآخر مع مرور الزمن بشكل مبعثر دون اتباع نظام معين.

وهي تضم قصرا مع حديقة مميزة piazza d'oro ذات بركة مائية وتمائيل ومبان سكنية أخرى ومسرحا ومكتبتين إغريقية ولاتينية وفناء تابعا لهما وصالة للفلاسفة وميدان استقبال امبراطوري ضخم (90 x 230 م) قائم على مصطبة وفيه بركة واسعة جدا وهو محاط بأروقة مفتوحة لتطل على الطبيعة المحيطة. كما يشمل المجمع معابد وحمامين كبير وصغير وحديقة مميزة تعرف بـ canopus تمثل فرعا من نهر النيل (قناة يربط بين مدينة كانوبس والإسكندرية) وهي عبارة حوض ماء طويل محاط بسلسلة من الأعمدة التي تحمل بالتناوب سواكف وأقواسا تتوزع تحتها تماثيل إغريقية (كارياتيد وغيرها) وكان هذا المكان مخصصا للاحتفالات والاستقبالات وفي نهايته معبد مميز للإله المصري سيرابيس Serapis. كما يشتهر ما يعرف بالمسرح المائي teatro marittimo وهو مسرح دائري محاط بحوض ماء حلقي يقطعه جسران خشبيان متحركان ويحيط بالجميع رواق دائري الشكل من الأعمدة الإيونية مسقوف بقبوة أسطوانية. ويلحق بالمجمع أيضا ملعب وغابة.



فيلا الامبراطور هادريان Villa Hadriana قرب تيفولي

د- الحدائق والمساحات الخضراء ضمن المدن الرومانية

احتاجت مدينة روما التي وصل عدد سكانها إلى ما يزيد عن مليون نسمة وتميزت بالكثافة العالية إلى مناطق خضراء ضمن المدينة كمتنفس للسكان. وتشير الدراسات أن تغيرات طرأت على مظهر الشوارع والمساحات العامة في المدينة مع ازدياد أهمية وغنى الإمبراطورية. ويبدو من مخططات مدينة روما القديمة وجود حدائق ضمن المدينة بين المباني وفي بعض المساحات والمباني العامة إضافة إلى مناطق خضراء على طرف المدينة قرب الأسوار.

لم يقتصر اهتمام الرومان على الحدائق الخاصة وإنما قاموا برعاية المناطق الخضراء في المدن وخاصة بعد استخدام القنوات الضخمة لتغذيتها بالمياه aqueduct. فجزوا المدن بفراغات للترفيه والتسلية مثل البحيرات الاصطناعية التي تعرض فيها المعارك البحرية والملاعب ومضامير سباق العربات. وفي روما أصبح ميدان تدريب الجند المعروف بـ (Marsfield) campus martius عبارة عن مرج واسع محاط بالأشجار ومفتوح للجمهور للتنزه. وعندما بنى القيصر أغسطس مدفنه الخاص ألحق به حديقة فتحت للعامة بعد موته. إضافة إلى أن المساحات العامة Forum التي اشتهرت بها المدينة لم تكن تخلو من العناصر النباتية وهذا ما نراه في إعادة تصور لساحة تراجان Forum Trajan للمعمار أبولودور الدمشقي، حيث يتوسط الساحة الواسعة تمثال للقيصر وتحيط به صفوف من الأشجار على الجانبين يطل عليها المارة من الأروقة المحيطة. كما لعبت الحمامات العامة أيضا دورا هاما إذ كانت تحيط بها أفنية واسعة تطل عليها فراغات لممارسة الرياضة وتيراسات ومناطق للتنزه مع حدائق فيها أحواض أزهار ونوافير و صفوف من الأشجار مثل حمام كركلا وحمام ديوقليتيان في روما.

وكانت الأشجار المفضلة في هذه الحدائق العامة هي السرو والصنوبر والدلب والأشجار المثمرة مثل الكرز والدراق والغار والشجيرات مثل الريحان والبقس وأنواع كثيرة من الأزهار.

خلاصة

اهتم الرومان بالحدائق على مستوى البيوت الخاصة والقصور والفيلات خارج المدن. وكان أغلب هذه الحدائق مسورا أو يقع ضمن فناء محاط بأروقة ويضم تشكيلات منتظمة ومتناظرة من أحواض النباتات والبرك المائية وكانت النوافير من التجديدات التي أدخلوها على الحدائق وتتنوع حولها التماثيل ومقاعد الجلوس والطاولات الرخامية. ولم يقتصر الاهتمام بالحدائق الخاصة وإنما أيضا بالحدائق العامة في المدن والمساحات وضمن المباني العامة مثل الحمامات. ساعدت شبكة الطرق التي كانت تغطي أنحاء الإمبراطورية الرومانية على نشر الأفكار وتصميم الحدائق في كافة أرجاء الإمبراطورية.